"النقد الانطباعي في صدر الإسلام"

لقد كان ظهور الإسلام حدثاً جليلاً، وانقلاباً جذرياً في حياة العرب من النواحي الاجتماعية، الأدبية، والدينية... فانقلبت المقاييس وتبدلت القيم، وتغيرت مقومات الحياة العربية في شتى الميادين. وبظهور الإسلام بدأت تتجلى للعيان بعض الملاحظات النقدية، وبعض التعليقات والمواقف التي حددت بشكل بيّن موقف الدين الجديد من الشعر والشعراء.

وكان للقرآن الكريم والسنة النبوية أثرهما في التوجيه الديني والأخلاقي للموضوع الشعري وغرضه من حيث الرفض والقبول. ولم يكن الرسول (ص) بغافل عن تأثير الشعر في نصرة الدعوة المحمدية وترسيخ مبادئ الإسلام والدين الجديد. فقال لحسان بن ثابت:« **أُهجهم فإنه يعينك عليهم روح القدس** »[1].

لقد صقلت النزعة الإسلامية الذائقة العربية، فخفت حدة العصبية، وخبت النعرات والضغائن التي تذكّر بدعاوى الجاهلية. وكان الرسول (ص) أول من حثّ على **تحكيم الأخلاق في نقد الأشعار**، إذ كان (ص) يتفاعل مع الشعر الحسن والكلمة الطيبة، فعبّر عن إعجابه بقصيدة كعب بن زهير قائلاً:« **إنّ من البيان لسحراً، وإنّ من الشعر لحكمة** ». فاتضح للعيان أن الرسول (ص) تذوق المعنى الشعري، وتجاوب معه، فعبّر عن رضاه من خلال صفحه عن كعب، فاصطفاه كأبرز شعراء الدعوة، كما أبدى النبي (ص) إعجابه بالإباء العربي الذي تضمنه قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

[1] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج4،ص145.

فعلق قائلاً: ما وصف لي أعرابي أحببت أن أراه إلا عنترة[2]. كما كان النبي (ص) يتمثل بقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنتً جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وفي موقف آخر، أبدى الرسول (ص) سخطه من ذي القروح، فروى ابن قتيبة عن ابن الكلبي قال: اقبل قوم من اليمن يريدون النبي (ص)، فأنشدوه بيتين من شعر امرئ القيس، فقال (ص):« ذاك رجل مذكور في الدنيا، شريف فيها، منسي في الآخرة يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار »[3].

وهكذا، أبدى الرسول (ص) عن حبه للشيم العربية، والخصال الكريمة التي تغنّى بها طرفة بن العبد وعنترة، ليظهر امتعاضه من شعر امرئ القيس وشخصه المتمادي في الترف والتغزل بالنساء. فكان (ص) يتذوق المعنى الشعري، وينفعل لمعانيه وفصاحته.

وإذا تدبرنا الأغراض الشعرية في عصر الرسول (ص)، وجدناها لا تخرج في شكلها ومضمونها عمّا كانت عليه في الجاهلية، إلاّ من حيث التنوع في الأغراض. وقد تخصص الشعراء في غرضين اثنين هما: الهجاء (هجاء المشركين)، والمدح (مدح الرسول (ص)، وآل البيت).

فالإسلام دين توحيد، وقد عمل كلٌّ ما في وسعه لتوحيد العرب، وضم قبائلهم المتناحرة، وسل الضغائن من صدورهم، والغاية من وراء ذلك هي تجنيد كل قواهم وتوظيفها في سبيل خدمة الدين الجديد وتحقيق أهدافه.

أما في العهد الراشدي، فقد أسهمت عدة عوامل في التقليل من دواعي قرض الشعر بسبب الفتوح وانتشار الإسلام، فقلّت المساجلات التي كانت تدور بين الشعراء، وتجلّت

---

[2] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص67.
[3] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص67.

الحركة النقدية في مواقف الخلفاء الراشدين أنفسهم من الشعر والشعراء، فصنّفوه ما بين حسن مفيد وقبيح مذموم.

وقد ذكر ابن رشيق القيرواني **أنّ عمر بن الخطاب كان من أنقد أهل زمانه للشعر، وأنفذهم فيه معرفة**[4]؛ فعمر بن الخطاب كان مقتنعاً بأنّ خير ما يثقف الناشئة هو تعلم الشعر، لما في تعلّمه من فضائل كثيرة، فقد أثر عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري يقول له:« مر من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معاني الأخلاق، وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »[5].

ولعمر بن الخطاب مواقف مشهورة مع الشعراء، تنم عن حس نقدي وبصيرة بأسرار الصناعة الشعرية، فذكر ابن قتيبة أن الحطيئة جاور الزبرقان بن بدر، فلم يحمد جواره، فتحوّل عنه إلى بغيض فأساء جواره فقال يهجوه:

ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلاً ذا حاجة عاش في مستوعر شاس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنتَ الطاعم الكاسي

فأرسل عمر إلى حسان بن ثابت فسأله عن هذه الأبيات، فعلّق قائلاً: لم يهجه فحسب، ولكن سلح عليه. فحبسه عمر قائلاً: يا خبيث، لأشغلنّك عن أعراض المسلمين، فقال الحطيئة وهو محبوس:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيتَ كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر[6]

كما اتضح في مواقف أخرى بأنّ عمر يؤثر اللفظ السهل اليسير والصورة القريبة، والعبارة المسبوكة سبكاً محكماً. فقد أعجب بشعر زهير لكونه« **لا يعاضل في الكلام، ولا** يتبع **حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه** »[7].

---

[4]- ينظر: ابن رشيق، العمدة، ج1، ص33.
[5] - المصدر نفسه، ج1، ص 28.
[6] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص244.

كان معيار النقد عند الخلفاء الراشدين متأثراً **بالمجالس الأدبية التي كانت تعقد في المجالس العامة والمساجد**. وكان الصحابي ابن عباس يشارك الخلفاء **في توجيه الشعر وجهة إسلامية**، تبعده عن ماضيه الجاهلي، وتقرّبه من حاضره الإسلامي بمُثُله العليا وقيمه الأخلاقية. كما وجدنا في عصر الراشدين رافداً نقدياً ظل يغرف في أحكامه العامة من روح الانطباعية الجاهلية في تذوق الشعر والحكم عليه.

ولذلك كانت **سطوة القديم الجاهلي طاغية على الأحكام النقدية في عصر صدر الإسلام**، فدارت المواقف في مجملها على **الصياغة والألفاظ** بسبب امتداد الحركة النقدية في العصر الجاهلي. ويبدو أن كثيراً من الشعراء لم يستوعبوا فلسفة الدين الجديد وروحه استيعاباً صحيحاً؛ فضلوا يقولون الشعر على طريقة القدامى، ما **دام الشعر الجاهلي بالنسبة لهم هو الأنموذج الذي يجب النسج على منواله**.

وعموماً يمكن أن نلخص مميزات الحركة النقدية في صدر الإسلام في النقاط التالية:

*يلاحظ في هذا العصر بأنّ الأخبار النقدية كثيرة، ولكن محصولها النقدي قليل.

*كان النقد منصباً على الشاعر أكثر من انصبابه على الشعر، كما كان منصباً أيضاً على سلوك الشاعر ومدى انعكاسه على شعره.

* إن الذي اضطلعوا بوظيفة النقد في هذه الحقبة كان أكثرهم من الشعراء - باستثناء الرسول - ولكنهم كانوا من ضعاف الشعراء، وهم دون مرتبة الشعراء النقاد في العصر الجاهلي؛ كالنابغة مثلاً.

*كان أكثر النقد الذي حصدناه في هذه الحقبة منصباً على المعنى، من حيث قربه أو بعده من الدين أو الأخلاق. ونادرا ما كان منصباً على الصياغة.

---

[7] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج9، ص 147.

* آثر النقاد في هذه الحقبة الشعر الموحد المتأله النابذ للوثنية والفكر الوثني.

*سار النقد في هذه الحقبة في طريق الخير، ولذلك أصيب باللين والضعف من الناحية الفنية، فانعكس هذا الضعف على طبيعة الأحكام الموجهة في النقد.